OPEN ACCESS
Received: 11 -07 -2025
Accepted: 20- 10-2025

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Critical Consciousness in Contemporary Discourse: Elevating the Act of Reading Toward Deep Interpretation

Dr. Leila Mohammed Djoudi*

leiladjoudi@windowslive.com

Abstract:

This study investigates the nature of critical consciousness within contemporary Arabic discourse, focusing on its capacity to enable reading, analysis, and deep interpretation. It explores whether critical discourse possesses a distinct methodology—given the proliferation and expansion of meanings—and whether it governs literary discourse or is shaped by it. The study further interrogates whether the criteria for reading various forms of discourse are unified or specialized, and whether critical consciousness seeks to uncover the unique features of texts or dissolves these features in the process of interpretation. By adopting an integrative analytical method, the research traces the contributions of renewed critical awareness to discourse in general and to literary and critical discourse in particular. It also examines the role of readers, critics, and interpreters in shaping discourse, developing its conceptual directions, and contributing to the formation of ideas, theories, and critical methodologies. The findings reveal that critical consciousness marks a fundamental transformation in the relationship between text and reader, where the reader becomes an active participant in reconstructing the text and generating meaning. Through redirecting the text toward a productive interpretive horizon, critical consciousness enriches the creative and critical act, granting discourse a dynamic analytical and hermeneutic depth.

Keywords: Critical Discourse, Creative Discourse, Reading and Interpretation, Critical Methodologies, Critical Consciousness.

---

* Professor of Higher Education in Classical and Modern Arabic Literature, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arabic Language, Literature, and Eastern Languages, University of Algiers 02, Algeria.

Cite this article as: Djoudi, L. M. (2025). Critical Consciousness in Contemporary Discourse: Elevating the Act of Reading Toward Deep Interpretation, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *7*(4): 265 -279 https://doi.org/10.53286/arts.v7i4.2906

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/07/11م
تاريخ القبول: 2025/10/20م

الوعي النقدي في الخطاب المعاصر: نحو الارتقاء بفعل القراءة إلى عمق التأويل

د. ليلى محمد جودي*
leiladjoudi@windowslive.com

الملخص:

تروم هذه الدراسة البحث في الخطاب النقدي المعاصر من حيث قابليته للقراءة والتفسير والتحليل والتأويل من عدمها، مما يستدعي خارطة عبور لسبر أغوارها بوساطة آليات إجرائية تمكّن القارئ من تحقيق الرؤية الشمولية، لهذا كان لزاما على الوعي النقدي أن يرفع من سقف دوره، ويجيب عن تساؤلات كثيرة من قبيل: هل للخطاب النقدي منهج خاص بالنظر إلى توالد معانيه وتناميها؟ وهل هو يُخضع الخطاب الأدبي أم يَخضع له؟ وهل معايير قراءة الخطابات هي نفسها؟ وهل الوعي النقدي يسعى إلى تفكيك الخطابات وكشف خصوصياتها أم يعريها من خصوصياتها؟ ماذا قدَّم الوعي النقدي المتجدد للخطاب عموما، وللخطاب الأدبي والنقدي خصوصا؟ وهل يستقر إلى حيث استقرت ألوان من العلوم والثقافات في عالم الإبداع والفن أم يتجاوزها؟ ثم ما دور الوعي النقدي في صناعة القراءة والنقد والتأويل؟ وهل هو كفيل برسم معالم القارئ والناقد والمحلل والمفسر والمؤول على حد سواء؟ وكيف أسهم القراء والنقاد والمؤولون في بلورة الخطاب وتطويره وتوجيه دفته نحو صناعة الأفكار والمناهج والنظريات وتفعيلها؟ وهل كثرة القراءات والتحليلات والتفسيرات والتأويلات تؤدي إلى تأويلات تعزّز الوعي النقدي وتثريه أم تؤدي إلى صِداماتٍ بين أهل التخصص؟ وقد اتبع البحث آلية التحليل في المنهج التكاملي، وقد خلص البحث إلى أن الوعي النقدي في الخطاب العربي المعاصر يمثل تحولا في طبيعة العلاقة بين النص والقارئ، من حيث إسهام القارئ في إعادة انتاج النص وبناء المعنى عن طريق تحويل مسار النص إلى وجهة إيجابية تمنحه تفاعلا نقديا وتأويليا.

الكلمات المفتاحية: الخطاب النقدي، الخطاب الإبداعي، القراءة والتأويل، المناهج النقدية، الوعي النقدي.

* أستاذ التعليم العالي في الأدب العربي القديم والحديث، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر 02، الجزائر.

للاقتباس: جودي، ل. م. (2025). الوعي النقدي في الخطاب المعاصر: نحو الارتقاء بفعل القراءة إلى عمق التأويل، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 7*(4): 265- 279 https://doi.org/10.53286/arts.v7i4.2906

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة (CC BY 4.0) Attribution 4.0 International، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

مقدمة:

فعل القراءة ما هو إلا ترجمان للأفكار المبثوثة في الكتب الإبداعية والنقدية، يحاول القارئ اللبيب أن يهضم ما جاء فيها بحكمة وتأن وصبر وعزم، متأملا أن يميط اللثام عن الغموض الذي يعتريها ويسكن فحوى خطابها ما يستدعي منه إعمال ذهن الناقد الواعي الذي يعمل مناهجه التحليلية لتقويض المتون وتفكيكها، ثم يجتهد في رص بنيانها وتركيب معناها الجديد الذي اصطبغ عليه في حلة غير التي كانت عليها قبل تشريح النص.

لقد توالت الجهود تباعا بغية إرساء نظرية نقدية جامعة لآليات إجرائية محايثة للوعي النقدي؛ ما دفعنا إلى تجاوز فكرة التلقي التقليدية نحو اكتشاف معايير شاملة للخطاب الأدبي والفني والنقدي. وغرضنا منه تخطي مرحلة الفهم إلى التقييم بعيدا عن النمطية الشائعة في مجاملة المتون ومحاكاتها، متكئين على الإشكال الآتي: كيف تجلى الوعي النقدي في الخطاب المعاصر؟ هادفين إلى السمو والارتقاء بفعل القراءة نحو التأويل بدلا من القراءة التي تجتر الأسطر برسمها دون تدبر وتفكر. آملين أن تبتعد الدراسات المعاصرة عن تكرار الرؤى الغربية الجاهزة دون وعي بعمقها.

وقد اتبع البحث آلية التحليل في المنهج التكاملي، متعرضا لجدلية القراءة والتأويل بمفاهيمها وأبعادها، محاولا الإمساك بأدواتها الزئبقية وسد ثغراتها، متكئا على بعض آراء النقاد العرب، أمثال الغذامي، والسريحي، وصلاح فضل، وسعد مصلوح، وسعيد يقطين، ومالك المطلبي، وحاتم الصكر، وحسين الواد، والمسدي، ومثلهم في نقد القصة والرواية من خلال خطة محكمة، انطلقت من مقاربة القراءة النقدية ثم التفت تُحايث الدرس النقدي معتمدة على نصوص قرآنية وأخرى تحمل الرؤى النقدية، ومن ثم خاضت في جدلية القراءة والتأويل محاولة كشف كنهها الهلامي بعد تقويض الخطاب النقدي المبسوط على صراط التأويل، لنختم بحثنا الحثيث بجملة من النتائج والتوصيات.

مفهوم القراءة النقدية في الخطاب المعاصر:

أن تكون مبدعا فهذا أمر جميل، وأن تكون قارئا نهما فهذا أمر عظيم، وأعظم من هذا وذاك أن تكون ناقدا حصيفا، ومؤولا نزيها، بل أخطر من هذا كلّه أن تمتلك وعيا نقديا، فهذا منتهى المأرب. إن هذا التسلسل في الطرح لم يكن جزافا، وهو حال هؤلاء ممن لا يلقون الكلام على عواهنه؛ إذ حسبهم أنهم يرومون الإسهام في بناء الإنسان، والارتقاء به، أو تصحيح مساره مع تقلبات الزمن وما تشهده الحياة من تجدد؛ لذلك كان لا بد للإبداع من أن يرسّخ جذوره بالقراءة، التي هي في الأصل قراءات، تعين القارئ على إيجاد فهم عميق لكل ما يقرأ، سواء أكان خياليا أم واقعيا، ثُم تشكيله من خلال التدرج المرحلي الذي ينطلق بالتأمل والفهم، إلى التحليل والتقييم، فالتفسير والتأويل اللذين يعدان من أبرز مستويات تحليل الخطاب النقدي.

ولئن كان فن القراءة - ولا يزال - بابا واسعا لا يمكننا تجاهل أهميته في النص الإبداعي والخطاب النقدي، فإن طرقه لولوج عالم النقد الواعي شرط واجب الوجود؛ إذ به تُحَقِّقُ مسألة الوعي والفهم فاعليتها لكل ما يُقرأ، كون الوعي النقدي هو - أيضا - فنا مخصوصا، وذائقة معرفية منفتحة، تسعى إلى تحويل الذهن من مرحلة الاستيعاب النسبي إلى مرحلة الفهم الدقيق؛ بوصفه مجهودا فكريا يقف القارئ فيه بأدواته القرائية وآلياتها المنهجية على جملة النصوص المنفتحة على تنوعها واختلافها لاستخلاص دلالاتها.

ومن هذا المنطلق فإن أبسط تعريف يمكن أن يمنح القراءة النقدية هو تلك المقدرة الذهنية المتفتحة، والتي يتسربل بها القارئ لمقاربة النصوص/ الخطابات، وتحليلها، ومناقشتها، وتفسيرها، وتأويلها بما أتيح له من أدوات اكتسبها من خبراته ابتغاء تقويمها، أو تفكيكها وتقويضها، ثم إعادة بناء معانيها بسد ثغراتها، وإبداء رأي، وتقديم حلول للمشكلات.. كل هذا من

أجل تثمينها بموضوعية تقوم على العقل والمنطق، ثم تفعيلها والعمل بها؛ ما يعني الغوص في البنية العميقة للنصوص/ الخطابات باستخراج الدلالات المكنونة فيها لإعادة صناعتها، ومن ثمة فإن للقراءة النقدية أهدافا كثيرة من أهمها:

- تكوين قارئ حاذق ذي مقدرة على التعاطي الواعي مع النص/ الخطاب، وعرض رؤاه النقدية، واتخاذ مواقف، وصناعة قراراته وممارستها مثلما يصنع هو بذاته نصه/ خطابه النقدي.
- تدريبه على التفكير بطريقة منطقية وبشكل تحليلي سليم للوصول إلى استنتاجات معقولة.
- تعليمه وجوب تخطي المعاني الظاهرية إلى المعاني الباطنية وما فيها من رموز ودلالات.
- مساعدته على أن يكون قارئا يقظا وموضوعيا.
- إقناعه بأنه عضو مشارك في إنتاج النص/ الخطاب وإعادة بناء معانيه وتفسيرها وتأويلها.
- تنمية روح الإبداع لديه.
- تمكينه من ربط المقدمات بالنَّتائج (لافي، 2006، ص 27، 28؛ بكار، 2008، ص 18؛ الصوفي، 2008، ص 36).

الدرس النقدي بين الولاء والجفاء

لطالما تساءلت وأنا أطالع عناوين بعض الكتب والأطاريح والمقالات.. أيها أصوب: العبارات التي تقول (من التأويل إلى النقد) أو (من الدين إلى الفلسفة) أو (من القراءة إلى التأويل) أم العبارات التي تقول (بالتأويل إلى النقد) أو (بالدين إلى الفلسفة) أو (بالقراءة إلى التأويل)؟ إن سؤالا كهذا يحتاج إلى قراءة معمقة ومسالمة، تؤكد أهمية الطرح لدخول عوالم القراءة والنقد والتأويل، وهو ما يستدعي تساؤلا أكثر أهمية هو: أيهما يخدم الآخر؟ وهو سؤال جدير بالإلقاء والبسط بالنسبة إلى من يشتغل في نظريات القراءة والنقد والتأويل، ويبحث عن جدواها في الخطاب عامة وفي الخطاب النقدي خاصة؟

من الدوافع الكثيرة التي أدت إلى عدم نجاعة كثير من الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، وتفعيلها على أرض الواقع تلك المقاطعات - لا التقاطعات - التي مزقت أواصر البحث الناتجة عن ذلك الركام من المناهج السياقية والنسقية، خاصة التي تبناها العرب عن الغرب، وتهافتوا عليها من دون أن يتمثلوها كما ينبغي، أو يعطوها حقها من البحث والدرس، ومن دون النظر إلى مدى استجابة أدواتها وآلياتها لشروط قابلية النص/ الخطاب الاستعانة بها، فصار الواحد منهم يتلقَّفها ويُضَمِّنُها أعماله من دون وعي حقيقي بأهميتها، أو ربما غير آبه بجدواها عند المبدع وفي نصه قبل إدراك أهميتها في الدرس النقدي، ومرّد هذا كله قد يعود لشعورهم بالدونية، أو التجاهل، أو النقص، أو ربما رغبة منهم في تخطي مرحلة التقوقع الفكري والانغلاق على الذات إلى مرحلة المثاقفة والانفتاح على الآخر، بالاطلاع على أنماط تفكيره ووعيه الإبداعي والنقدي؛ حيث كان الانتقال من سلطة المؤلف إلى سلطة النص ليس من أجل الإنقاص من دور المؤلف، باستبعاد دوره في العمل الأدبي، ليعقبه إعلان عن موته، وإن كان في حقيقته إعلان حياة النص يوم ميلاد القارئ؛ لأن المؤلف ظل مسيطرا ردحا من الزمن طويلا، وإنما جاء هذا الانتقال حفاظا على هوية النص والتعامل معه على أنه بنية مغلقة مكتفية بذاتها، معزولة عن أي مرجعية خارجية؛ أي تحوّل وجهة النظر من الناطق بالنص إلى النص بذاته، أو من ناسخ القول إلى نسيج القول(المسدي، 1997، ص 19)، لترتد الوجهة نحو المؤلف، ولكن هذه المرة بوصفه متلقيا مع غيره من المتلقين.

مع العلم بأن الانتقال من السلطتين الأوليين إلى سلطة المتلقي يمثل ضربا من العبثية التي في جوهرها تشل حركة النقد بالنسبة إلى النظريات والمناهج، وتحد من حركية الناقد الحصيف، وإذا سمح له بالتحرك فإنه سيتخبط خبط عشواء؛ فلا يضيف للنص أو حق للنقد إلا الغموض والشتات. وهذا ما يؤكد أن الرفض - هنا - لم يكن "بحد ذاته قادرا على إضعاف

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

حضور تلك المناهج في سياقات حضارية غير سياقاتها، ولا مجرد القبول ممكنا من منح تلك المناهج صفة الحياد الذي يمكّنها من الانسجام الكامل داخل أطر ثقافية غير أطرها الأصلية"(المسيري، 1996، ص 272). إن ما يقال في هذا العمل البحثي ليس نسفا لدراسات اجتهد فيها أصحابها، وعملوا على التأسيس لها، والتأصيل لها خدمة للمرتكزات الثلاثة للعملية الإبداعية (المؤلف - النص - القارئ) التي جعلت المنظومة الكلية للإنسان محورا لها، وإنما هو تساؤل كبير أقض مضجعنا، يبحث في مدى وعي بعض الدارسين والباحثين تلك المفارقة الدقيقة بين الانتقال (من... إلى...) والانتقال (ب... إلى...)؛ كون المسألة الأولى تتسبب في إحداث قطيعة؛ إذ فيها إشارة صريحة إلى انهزام القارئ. والمسألة الثانية تحقق في الغالب الأعم وصلا، فهي لا محالة تشي بانتصار القارئ.

ولنكون أكثر وضوحا فنستحضر بعضا من معاني حروف الجر، وتحديدا "حرف الجر (من)، وحرف الجر (الباء)، وحرف الجر (إلى)"، لنبيّن أهميتها في الدرس النقدي والأدبي واللغوي، حيث يصنِّف علماء النحو العربي عناصر الكلام التي تتألّف منها الجملة في ثلاث فئات أو أقسام، هي: الاسم، والفعل، والحرف. ويختلف هذا الأخير الذي يتميز بخاصية البناء، عن القسمين الأولين بكونه لا يحمل أيَّ معنى في ذاته، وإنما يَتحقَّقُ معناه باندماجه مع غيره في سياق لغوي معين، كون حرف الجر يوظف خصيصا لإيصال معنى الفعل أو ما في معناه إلى الاسم المجرور، وذلك لقصور الفعل عن الوصول إليه مباشرة، ومن ثمة من الضرورة بمكان إدراك معانيها حتى يتمكن كل من المبدع والناقد من إيرادها في موقعها من الكلام الذي يليق بها، متجنبا مغبة الوقوع في الخطأ الفكري، أو اللبس المعنوي، أو احترازا من فقدان النص ذائقته الجمالية.

فمن معاني حرف الجر (إلى) انتهاء الغاية المكانية أو الزمانية، وتحقيق معنى المعيّة، والتبيين، والتوكيد، والابتداء، وقد يكون مرادفا لحرف الجر "اللام"، أو موافقا لحرف الجر "في"، أو لظرف المكان "عند".

ومن معاني حرف الجر "الباء" الإلصاق، والتعدية، والاستعانة، والتعليل، والمصاحبة، والظرفية، والبدل، والمقابلة، والتوكيد، والاستعلاء، والتبعيض، والقسم، والعوض، والمجاوزة، أو يأتي موافقا لحروف الجر "عن" و"من" و"إلى"،..

ومن معاني حرف الجر (من) ابتداء الغاية المكانية أو الزمانية، وتحقيق معنى التبعيض، وبيان الجنس، والتعليل، والبدل، والتنصيص، والغاية، والفصل، وتوكيد العموم، أو تأتي مرادفة لحروف الجر "عن" و"في" و"على" و"الباء"؛ مثلما ورد في قوله تعالى: ﴿**يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ**﴾ الشورى الآية 45. غير أن حرف الجر (من) هنا لا يحمل ذات المعنى وإنما جاء في سياق مغاير تماما، يراد به ينظرون بطرف خفي؛ أي ضعيف من الذل والخوف، فسيق حرف الجر (من) بمعنى الباء.

وقد يتساءل البعض متعجبا وما محل حرفي الجر (من) و(إلى) اللذين وردا في قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ الإسراء الآية 1. من قول القائل مثلا في عنوان مصنفه أو مقاله: من اللسانيات إلى النقد، أو من المناهج السياقية إلى المناهج النسقية، أو من الشفهي إلى الكتابي، أو من الدين إلى الفلسفة إلى النقد.. وغيرها كثير وكثير جدا؟

فأما جوابه ففي منتهى البساطة، فنقول لهم: إن المشتغل في حقل النقد، والأدب، والفلسفة، وغيرها من العلوم والمعارف لا بد أن يدرك أن أي دراسة سابقة - مهما كان نوعها - هي مكملة للدراسات اللاحقة، ولا يمكن للباحث أن يصل إلى النتائج وهو يغفل أهميتها؛ كونها تعين على التوصل إلى أفكار جديدة، وتغني عن الوقوع في ذات المزالق السابقة، وبخاصة إذا أيقنّا أن البحوث العلمية جميعها بنيت على ما كان سائدا من معارف وعلوم سابقة، تعاقبت عليها أجيال قصد تطويرها، ولئن كان الأمر كذلك كان لزاما على أهل العلم إعادة مراجعتها تبعا للمستجدات العلمية، وبما يتماشى ومتطلبات الفكر الذي يتجدد بتجدد الإنسان في واقع ما بعد صراعات الحياة وتناميها، عن طريق تخصيص مساحة جديدة تكون متنفسا لقراءات

جديدة وتأويلات متنوعة، أو تصويب خطأ، أو تغطية جوانب غفلت عنها الدراسات السابقة أو أهملتها، على أساس أنه "إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا؛ لكي نُنظم وسائل المعرفة وفقا لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته؛ فإننا نكون أكثر تمشّيًا مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثّرية في دراستنا، وتنظيم الدّور الذي تلعبه فيها... وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكّننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها؛ فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولكن لنَقصُره على ذلك في عزم، ولنعرف - مع احتفاظنا به - كيف نميّزه، ونُقدّره، ونراجعه، ونحدُّه؛ وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه، ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة" (لانسون، ومايبه، 1946، ص 29)؛ ما يعني أن الدارس إذا تمكّن من ضبط هذا المفهوم، ومعرفة دقائقه جاز له أن يخوض في مسائل الخطاب النقدي قراءة ودرسا وتحليلا ومقاربة وتفسيرا وتأويلا.

إن توالد المناهج وتبنيها بشكل تراكمي، ثم محاولة إسقاط أحدها على كل أنواع الخطابات، هو نوع من العبث والهذيان، وضرب من القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد؛ لأنه غالبا ما يُوأد المعنى الحقيقي لها، أو على الأقل تُتَجاهل شحناتها الفكرية، وأبعادها الجمالية، وخصوصياتها الفنية، لمنح أصحاب هذا المنهج أو ذاك أنفسهم حق لعب دور القاضي والجلاد؛ لإيمانهم العميق بصوابهم دون غيرهم، أو لإبراز نجاحهم في الترويج لها أو تفوقهم.

وهنا يتسرب سؤال صميم في هذا السياق وهو: ما السبيل لتجنيب الخطاب سوء القراءة، وسوء الفهم والنقد، واتقاء شر تأويل لا متناه، فيه مغالطات وتناقضات، واستعاضتها بقراءات وفهوم وتأويلات يتقبلها العقل اقتناعا وإقناعا، والقلب تأثرا وتأثيرا؛ أي من دون الخروج عن مقاصد الخطاب؟

جدلية القراءة والتأويل:

إنه ليس من الهين أن تكون قارئا حصيفا، أو جامعا، أو خبيرا، أو نموذجيا، أو مثاليا. لهذا لم يبخس النقاد المتلقي - قارئا وسامعا - حقه من العناية والاهتمام، وبخاصة أنه يمثل دعامة التأويل، بل القلب النابض فيه، ولأنه كذلك فقد شخصت إليه أبصار النقاد، واتجهت دراساتهم صوبه لمنحه مزيدا من الرعاية، فجعلوه قارئا مستهدفا، وخياليا، وضمنيا، ومرتقبا، ومورطا، وقصديا... همهم ضبط حدوده ومعرفة خصوصياته لتقنين دوره وإعلاء شأنه تنظيرا وممارسة، ما حمله على أن يستأسد بعد أن أعطي دورا مهما كان حكرا على المؤلف، وهو إعادة كتابة النص/ الخطاب من جديد.

كما أنه حري بنا أن نشير إلى مرحلة ما قبل التنظير، فقد أولى فيها المبدعون والنقاد اهتماما كبيرا به منذ القدم، رغم أن نقدهم كان ذوقيا ساذجا، فيه من التعميم الشيء الكثير، في ظل غياب التعليل المفصل والمنهج الواضح، ولكن حسبهم أنهم وضعوا اللبنة الأولى بمحاولاتهم القائمة على المران والممارسة، ومحاولة تفسير الظاهرة الأدبية، والمفاضلة الملقاة على عاتق المتلقي؛ لخطورة دوره في استحسان النص وقبوله من استهجانه ولفظه؛ ومنهم: زهير بن أبي سلمى الذي كان ينقح قصائده حولا كاملا، ومنهم النابغة الذي كان يحتكم إليه الشعراء، وكانت العرب تضرب له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ، ويأتيه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فيحكم بينهم، ومنهم خلَف الأحمر الذي قيل له: "إذا سمعتُ أنا بالشعر واستحسنتُه فما أبالي ما قلتَ فيه أنت وأصحابُك. فقال له: إذا أخذتَ درهما فاستحسنتَه فقال لك الصرَّاف: إنه رديء؛ هل ينفعك استحسانُك له؟"(الجمحي، 1974، ص17)، ومنهم ابن سلّام الجُمَحي صاحب أول كتاب وصلنا في النقد (طبقات فحول الشعراء) الذي أدرك أن "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهلُ العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"(الجمحي، 1974، ص 23) ومنهم يونس بن حبيب، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، والجرجاني والآمدي وغيرهم ممن لهم فضل كبير على من جاؤوا بعدهم ليقاربوا النصوص/ الخطابات في جوهرها تحليلا وتعليلا، باستقصاء علمي دقيق وإنعام نظر.

وقد كان لنظرية التلقي دور ريادي في مجال التأويل ضمن النقد الأدبي، حيث عملت على تأسيس جمالية صار فيها المتلقي قادرا على إنتاج النص/ الخطاب بوساطة فعل قراءة المعنى وتَمَثُّله عن طريق الفهم والإدراك والتفسير والتأويل، من منطلق أن القراء أحرار في تلقي نصيبهم من لذة النص(سلدن، 1998، ص 122)، وبالتالي كل ما له صلة بالقراءة والتأويل، وبهذا يتحول النص/ الخطاب إلى بنية خاضعة للذات التي تؤوله. في إشارة إلى علاقة القارئ بالمقروء التي هي علاقة رغبة واشتهاء متبادلة تقوم فيها العملية التأويلية ببناء إستراتيجية دقيقة لحفر الخطاب بحثا عن المعاني الكامنة في أغواره والعمل على استفزازها بفعل القراءات الواعية التي "تتطلب مهارة تخييلية تطابق أو تتجاوز مهارة المؤلف نفسه، فمواجهة البنى الرمزية في تعددها ولا نهائيتها تحتاج إلى رؤيا تأويلية تكرس جملة من العوامل والمعايير، وتتوسط القراءة والعلم والتفسير والفهم الذوقي والعقلي وغيرها من أساليب التحليل سواء عن طريق المكاشفة والظن أو عن طريق عقلنة المعنى نسبيا، أو سواها من الأساليب المحاورة، وتشابك الفضاءات وتداخل العوالم"(حمر العين، 2010، ص 19، 20).

ولن يتحقق هذا إلا بوجود قارئ مؤول نوعي قادر على السير في واحدة من هذه الطرق، التي تعينه على إعادة بناء الخطاب، وهو متسلح بمجموعة من الآليات والتقنيات التحليلية. لكن الطريق التي يختارها لا بد أن تكون لها مداخل ومخارج وفروع مثلها مثل الخطاب/ النص المنفتح على التأويلات؛ ما يعني أن المؤلف "يقدّم للمؤوّل أثرا يحتاج إلى أن يكمله وهو يجهل الطريقة المحددة التي سيحققها ذلك، لكنه يعرف أن عمله سيبقى هو عمله"(إيكو، 2013، ص 33)، ولكن هل هذا يعني أن القارئ المؤول سيكون رهينة عند المؤلف، خاضعا له؛ فيقول ما ينشده المؤلف أم تراه ينسل من خيوط نسيجه ثم يبني عالما تأويليا يخصّه وفق إستراتيجيات قرائية تنظم عملية الفهم والقراءة والتأويل لديه وتفشي عن أسرار مقصديات كثيرة في الخطاب؟

إن محاولة الكشف عن جماليات خطاب ما تعني تفاعل القارئ المؤول ضمن بنياته اللغوية، والتركيبية، والفنية، والأسلوبية، والدلالية، من أجل ممارسة عملية التأويل انطلاقا من عملية القراءة التي هي عبارة عن فعل واع يقوم به القارئ بغية سبر عوالم النص/ الخطاب وعبور دهاليزه تحقيقا لقراءات تأويلية عساها تسد فراغات تركها مؤلف الخطاب/ النص عمدا. ما يفسر أن العلاقة هنا "تكاملية ما بين التأويل بوصفه عنصرا تفسيريا بما هو موجود داخل النص من مفاهيم ومضامين ودلالات، والقراءة باعتبارها وسيلة تواصلية تتم بين القارئ والنص لغرض بناء علاقة معرفية، الهدف منها استيعاب مكامن النص الظاهرية والباطنية التي لا تكتمل إلا بوجود عنصر التأويل الذي يقوم بكشف الغموض الذي يكتنف مضامين النص"(شريط،2008، ص 173). وما دام الخطاب/ النص قابلا لعمليات القراءة والفهم والتأويل فلا بد له من سياق بكل مستوياته الدلالية والتداولية وقدراته الإجرائية للبحث عن مقاصد المؤلف، لذلك يعرِف التأويل أثناء أداء مهامه منعطفات خطيرة ذات صلة بحمولته الثقافية، والتاريخية، والمعرفية التي تقوده إلى تأويلات من نوع مخصوص تكشف عن جملة من الرؤى والتوجهات بالنظر إلى انفتاح الخطاب/ النص وتعدد قراءاته.

الخطاب النقدي على صراط التأويل:

يسعى الخطاب النقدي لتأسيس البنى التحتية لآلية التأويل لمجموع الخطابات/ النصوص بالنظر إلى أن "النصوص أبنية لغوية، لا تفارق النظام الدلالي للغتها إلا في حدود خاصة مشروعة بطبيعة وظيفتها المقصودة في الثقافة"(أبو زيد، 1992، ص 101)، لذلك تكثر التأويلات وتختلف بكثرة القراءات واختلافها، غير أنه لم تُجعل القراءة يوما من أجل القراءة، أو التأويل من أجل التأويل، أو النقد من أجل النقد، كلا ولا خاب امرؤ يوما ومقصده نبيل - على حد قول إبراهيم طوقان -، بل

لم تكن القراءة والنقد والتأويل إلا من أجل أهداف أسمى؛ أقلها إعادة بناء الخطاب وتشكيله وتأويله وتفعيله باستنطاق المسكوت عنه، وكذا الكشف عن رؤية المؤلف المخبأة، وهنا حق لنا أن نتساءل: ما موقع التأويل من الخطاب النقدي؟

تنطلق هذه الإشكالية من بسط سريع لمفهومي النقد والتأويل، وأهميتهما في تعزيز دور النص/ الخطاب مهما كان شكله وموضوعه وحجمه، المهم أنه يحرك صنوفا من الانفعال الشخصي والتعصب والانحياز، ويجلي وجوها من المعاني للوصول إلى المغزى بإعمال العقل خاصة، ولأنه كذلك فإنه في ذات الوقت يؤجج ضروبا من القراءات السريعة والمتجددة وربما العنيفة والتعسفية في كثير من الحالات؛ لأنها تحاول إزاحة ما قبلها من قراءات حتى تتمكن من بسط سلطانها، اللهم إلا بعض القراءات المتأنية والمسالمة والهادئة، التي يبتغي القراء من ورائها توصيف وضع وتقريبه؛ بتوظيف أدوات تقنية وآليات إجرائية تَسِمُ النصوص والخطابات قبل أن تميّز أصحابها وتجعلهم متفردين.

ولئن كانت بعض الأسئلة تتسرب بين الفينة والأخرى من مسألة ما، فإن مسائل أخرى شائكة تفور منها تساؤلات من قبيل: هل للخطاب النقدي منهج خاص به وحده بالنظر إلى توالد معانيه وتناميها؟ وهل هو يُخضع الخطاب الأدبي أم يَخضع له؟ وهل معايير قراءة الخطابات وتحليلها وتفسيرها وتفكيكها وتأويلها - على تنوعها واختلافها - هي نفسها؟ بمعنى هل قراءة الخطاب النقدي وتأويله هو نفسه قراءة وتأويل الخطاب الديني، والأدبي، والمعرفي، والإنشائي، والنفساني، والاجتماعي... وغيرها؟ وهل الوعي النقدي يسعى إلى تفكيك الخطابات وكشف خصوصياتها أم أنه يجني عليها بتعريتها من خصوصياتها؟

إنّ الخطاب "حدث تواصلي معين، ولكنّه يمثل تفاعلا لفظيا أو توظيفا لغويا مكتوبا أو منطوقا بصفة خاصة"(توين، 2014، ص 222)، ولأن الخطابات تزداد حضورا وكثافة، وتعمل على بسط نفوذها في الساحة الفكرية، والأدبية، والنقدية، والفلسفية، والتاريخية في ظل تأزم الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، والسياسية، وحتى الحربية، فإنها لا تخلو من أساليب الاستقطاب المدروسة، أو بعبارة أدق لا تخلو من تفعيل لإستراتيجية الهيمنة على وعي متلقيها ومداركه، فإذا كان التحليل النقدي للخطاب يعنى بمعالجة الأساليب؛ أي الطرق التي ينهض بها النص والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها (عبد العزيز، 2016، ص 37)، فهذا يعني إعانة المجتمعات على مقاومة كل ما من شأنه أن يثبط عزيمتهم في استيعاب فكرة "ما بعد الاعتداءات واللامساواة".

وهنا يكمن الأثر الطيب للتحليل النقدي للخطاب في توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبنى الاجتماعية بمختلف تقنياتها التي تصنع النصوص/ الخطابات، والتي هي في جوهرها "شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب" (بوقرة، 2009، ص 13)، و"يعد خطابا كل ملفوظ/مكتوب يشكل وحدة تواصلية تامة" (المتوكل، 2003، ص 22).

ومنه يمكن القول: إن الأدب من حيث هو نص إبداعي له مضمونه، والنقد من حيث هو كلام عنه ومنه/ أو فيه بالرجوع إلى صيغه وخصوصياته، له وظائفه التي أكثر ما تتجلى في الكشف، والتشخيص، والتحليل، والمناقشة، والوصف، والحكم، والمعالجة؛ ولذلك عدّ النقد "فن تقويم الأعمال الفنية والأدبية، وتحليلها تحليلا قائما على أساس علمي"؛ من أجل تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده، وهو ما ساعده على ابتكار خطابه المستحدث... (المسدي، 1983)؛ لأن المنهج الذي هو جزء لا يتجزأ من النقد هو من يعرض نفسه على الخطاب، فينتقي هذا الأخير ما يراه مناسبا، وليس العكس، إذ حسب الخطاب أنه سابق للمنهج.

إن الخطاب النقدي بقراءاته وتأويلاته ومناهجه، بعيدا عن كونها فنا أو نظرية، أو فلسفة أو علما أو إجراء أو آلية، هو شعور القارئ المحلل والمفسر المؤول بحاجة الخطابات إلى مراجعات قرائية، تنبئ عن اتساع مدارك عقله، ونمو قوة

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

التفكير لديه، للوقوف على انفتاحها على كل قراءة جديدة، ولتأكيد مدى تقبلها مستجدات ذات مضامين لا منتهية من دون إكراه، وهي الفكرة التي لخصها بعض الدارسين عندما حددوا مفهوم الهرمينوطيقا بوصفها فنا تأويليا في ثلاث كلمات: "التعبير، والشرح، والترجمة"(جونس، 1988، ص 56)، وقال بعضهم: هي "فن تفسير وتأويل العلامات... تحاول حل كل العوالم الرمزية، وبخاصة العوالم الخرافية والأسطورية، والرموز الدينية والأشكال والصيغ الفنية. إن التأويلية بمعناها الدقيق هي المنهج المعتمد في تأويل النص الأدبي، الذي ينبع من ذات القارئ"(غارديس، كلود، 2013، ص 214) ؛ ابتغاء فهمه والكشف عن بنيته الداخلية والوصفية، وطبيعته ووظيفته المعرفية خاصة، وكذا رغبة في محاولة الوصول إلى ما يضمره النص/ الخطاب من حقائق ورموز ربما لأسباب إيديولوجية أو سياسية أو حتى زمنية تعود لبعده عنا أو بالأحرى لبعدنا عنه.

ولئن كانت التأويلية هي "نظرية عمليات الفهم في علاقاتها مع تفسير النصوص، وكانت الفكرة الموجَهة هي فكرة إنجاز الخطاب كنص"(ريكور، 2001، ص 58). فإنّ التأويل لا يخرج عن كونه مقاربة معرفية لفهم الذات والآخر، ووصلهما ببعض، وإن لم ير فيه بعضهم منفذا لبنية روح الإنسان، ولكن لواقع مبني من قبل سيرورة التأويلات اللامنتهية (بارة، 2009)، فإذا كان "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحدَه... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحدَه، ولكن يدلُّك اللفظُ على معناه الذي يَقْتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض... ولكن يدلُ اللفظ على معناه الذي يُوجِبُهُ ظاهرهُ، ثم يَعْقِلُ السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك،...فهاهنا عبارة مختصرة وهي: أن تقول المعنى ومعنى المعنى. تَعنى بـ "المعنى" المفهومَ من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. وبـ"معنى المعنى" أن تَعْقِل من اللفظ معنى ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"(الجرجاني، 1992، ص 263)، فإن هذا ما يفضي إلى القول: إن التأويل عمل على تخطي مرحلة الاكتفاء بوضع الأسس العامة لفهم النص/ الخطاب، وعلى تجاوز "مسافة زمنية أو لغوية ما من المعنى"(بن حسن، 2003، ص 14) إلى مرحلة إثبات وجود الوعي/ الفهم من دون أن يُبخس موضوع النص/ الخطاب - أي لغته - حقه من دوره في تزويد المؤول بالمعنى، على أساس أن القارئ المؤول يفهم "المؤلف بقدر توظيفه للغة، فهو- من جانب- يقدم استعماله للغة أشياء جديدة، ويحتفظ- من جانب آخر- ببعض خصائص اللغة التي يكررها وينقلها"(مصطفى، 2003، ص 162).

وهنا سيزداد إسهامه في إعادة صناعة النص/ الخطاب، وتشكيله باستنطاقه، وفك شفراته، وسبر أغواره، وإضاءة دهاليزه؛ لإدراك معانيه ودلالاته التي تنبثق منه، بناء على إمكاناته وما توفر لديه من أدوات قرائية فاعلة وآليات تأويلية منطلقها الفهم أولا بنوعيه الجوهري والقصدي وبمرجعياته وأنساقه، فالتفسير ثانيا بدلالاته ومعانيه ما يجعل التأويل أخيرا يتحرك في نطاق مرجعيات النص/ الخطاب فيرتحل بالمعنى إلى تلك الواقعة النصية التي هي المحرض على القول النقدي من تأريخ، ووصف، وكشف، وتفسير، وتأويل(توامي، 2013، ص 187)، يقوم على القراءة التفاعلية.

إن وجود نص/ خطاب من دون قارئ مؤول يمحو عنه جدواه، بل يمحو وجود النص/ الخطاب في حد ذاته، مثلما تحاول بعض النظريات والمناهج الحديثة إلغاء ما سبقها من نظريات ومدارس ومناهج نظروا إليها بدونية من برج عاجي مَوْقَعَتْ نفسها فيه، غير أن بعض النظريات أعادت الأمور لنصابها، فاستدعت القارئ والنص/ الخطاب على حد سواء، وأنزلتهما منزلة سامقة في الدرس النقدي للخطاب الديني، أو الأدبي، أو الإعلامي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو الفلسفي، أو الإعلامي، أو الإشهاري؛ ليكون حضور التأويل فاعلا بين القارئ والنص/ الخطاب، ولم تلغ حضور المبدع الباث، لما له من أهمية في تحقيق التواصل؛ ما يعني "محاولة إقامة بنية للتلقي أو جهاز للقراءة في مقابل بنية الرسالة أو جهازها الإبداعي والفني الراجع إلى نظامها الذاتي؛ أي أننا بصدد مستويين اثنين للتفاعل هما:

أ. تفاعل المتلقي بالباث: تواصل

ب. تفاعل المتلقي بالنص: تأويل"(بلمليح، 2000، ص 98).

وكل هذا ينصهر في بوتقة خطاب ذي أسرار قابلة للتلقي، ومن ثمة الكشف عنها من خلال كم من التأويلات المتنوعة التي تحتاج إلى ضابط يحد من جموحها.

وبعد؛ فماذا قدَّم هذا الوعي النقدي المتجدد بمناهجه وبمرجعياته وأنساقها للخطاب عموما، وللخطاب الأدبي والنقدي خصوصا؟ وماذا منحت التأويلات المتجددة بتنقيحاتها وشروحاتها وما أتبعها من تفسيرات لهذه الخطابات؟ وهل يستقر إلى حيث استقرت ألوان من العلوم والثقافات في عالم الإبداع والفن أم يتجاوزها كما تجاوزت المراحل التقليدية عوالم فنية وإبداعية وعلمية كثيرة بحكم التطور القائم على التأثر والتأثير؟ ثم ما دور الوعي النقدي في صناعة القراءة والنقد والتأويل؟ وهل هو كفيل برسم معالم القارئ والناقد والمحلل والمفسر والمؤول على حد سواء؟ وكيف أسهم القراء والنقاد والمؤولون في بلورة الخطاب وتطويره وتوجيه دفته نحو صناعة الأفكار والمناهج والنظريات وتفعيلها؟ وهل شنت المناهج النقدية وبخاصة نظرية القراءة والتأويل حربا على الخطاب الإبداعي والنقدي، أم هي مجرد فورة عابرة وثورات تتأجج لبعض الوقت ولكنها سرعان ما تخمد، أم أن وجودها أمر حتمي يبقي على صنوف كثيرة من الخطابات التي تضمن التوازن العقلي والفكري والنفسي والاجتماعي الذي تصنعه القراءات والتأويلات؟ وهل كثرة القراءات والتحليلات والتفسيرات والتأويلات وتجاوزها الحد يؤدي إلى صدامَاتٍ قرائية وتحليلية وتفسيرية وتأويلية تعزّز الوعي النقدي وتثريه أم صِداماتٍ تزيد من حدة الصراع بين أهل التخصص؟ ثم ما المقصود بالنقد والتأويل وما أهميتهما؟ ومن يصنعهما؟ وما الذي حمل كلاً من القارئ والناقد والمؤول على تحمل عبء صناعة القراءة والنقد والتأويل والقيام بهذه المهمة الخطيرة؟ وما هي المعايير التي تجمع و/ أو تفرق بينهم؟ وهل تُشكّل القراءات والتأويلات مفترق الطرق بينها وبين الخطاب النقدي أم تمثل نقطة تقاطع؟ وهل القارئ الناقد هو نفسه القارئ المؤول؟

يتعاطى المتلقي - قارئا ومؤولا - مع النص/ الخطاب بناء على نوعه، حيث إنه إذا تمكّن من التّعرف على نوع الخطاب تمكّن بالضرورة من معرفة الدّور المنوط به، الذي سيغدو حقا مشروعا، في ظل الإبقاء على المعايير التي يبني عليها قراءته أو/ وتأويله؛ فهو إما أن يركز على ما قاله الخطاب الأدبي فيشتغل في النقد، وإما أن يعنى بالخطاب النقدي فيشتغل في نقد النقد، وإما أن يهتم بما لم يقله هذا الخطاب النقدي أو ذاك فيشتغل في تأويل الخطاب النقدي، وبين هذا وذاك تظهر على السطح جملة من المعايير الموضوعية مثل: التلقي والمتلقي، والقراءة والفهم، والتحليل والتعليل... وهي معايير كما هو واضح ذات صلة بنظرية التلقي خاصة، لضبط إشكالية تأويل الخطاب النقدي الذي هو بدوره يشتغل على نص/ خطاب يلعب فيه المتلقي دورا مهما "في فهمه، وتحيينه، وتأويله، وكذا الطريقة التي يحددها النص نفسه للتعامل معه"(Eco ; 1990, p 32).

مما لا شك فيه أن ضمور القراءة جاء نتيجة تجني بعض المناهج على النصوص التي زعمت تمكّن أدواتها من دراستها، غير أنها في جوهرها أكّدت إفلاسها وعدم نجاعتها في الغالب الأعم، ولكن بالموازاة ظهرت دراسات أخرى ألقت بظلالها على القارئ الوفي، الذي يشترط فيه أن يكون مثاليا، ليكون قادرا على تأويل خطاب نقدي ذي معان متعددة لا نهائية، وهو ما يتيح للقارئ التواجد في مساحة لا بأس بها من الحرية، من دون إغفال لما أراده المؤلف المنتج من خطابه، وهذا يعني إلباس الخطاب الإبداعي خطابا نقديا، وإلباس الخطاب النقدي خطابا تأويليا.. على أن لا يمحو أي خطاب خصوصية خطاب آخر، ومن ثمة لا بد من تحديد ملامح الناقد والمؤول الحاذقين الدقيقين، اللذين تقع على عاتقهما مسؤولية إرضاء ما ينتظره الجمهور المستهدف منهما، وبوصف الناقد وسيطا أولا يقلص المسافة ويقربها بين المبدع والقراء، وبوصف المؤول وسيطا ثانيا

يضع نفسه في منتصف المسافة بين خطابين اثنين هما: الخطاب الإبداعي والخطاب النقدي، ويحمّل نفسه عناء قراءات مكثفة ومغايرة.

لذلك ينبغي لهما أن يحتاطا لنفسهما، فيحفانها بما يليق بها، وأن يكونا صنو المؤلف، على دراية بالموضوع محل النقد والتأويل وعلى معرفة جيدة به، ملمين بجملة العلوم والمعارف، حتى لا يخوضا غمار نقد و/ أو تأويل لا يضع النص/ الخطاب بكلماته ومصطلحاته ومعانيه محل عناية فائقة تقوم على مراعاة أهداف أي خطاب، وهما بهذا إن جانبا هذه الضوابط حادا عن الصواب، فيخرجان بالخطاب عن مقاصده الأساسية التي قد تتسبب في أزمات كشف، وفهم، وإفهام، وتجديد، وضبط.

وعليه فالممارسة القرائية النقدية والتأويلية في مجملها تحتل مكانة أكبر بكثير من تلك التي تحتلها الخطابات الأدبية، لأن أدوار القراء والنقاد والمؤولين لا تنتهي فهم يقرؤون، ويتذوقون، ويستمتعون، ويشرحون، ويبسطون، ويضعون المفاهيم، ويسدون الثغرات، ويصوبون، ويزنون، ويؤولون، ويتتبعون دقائق الخطابات الأدبية والدينية والفلسفية...، لأن المبدعين والكتاب ينامون ويتركون أمر تثمينها للقراء. ألم يقل المتنبي يوما:

"أَنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ"؟

وهذا ما يوسّع من دائرة القراءة والنقد والتأويل مفهوما وأصولا، ينبغي على كل من القارئ والناقد والمؤول السير على ضوابطها وحدودها.

لا يكتفي المتلقي - قارئا ومؤولا وناقدا- بالبحث عن مقصدية منتج الخطاب الأدبي والنقدي، وإنّما يترصّد أيضا فلتاته، وإن كان هذا المتلقي - نفسه - بضروبه وفروعه، يقف على الخطاب الإبداعي عاجزا عن الإمساك بمعناه الحقيقي بقبضة من حديد، وهي قبضة تصادر جماهيرية القراءة التي تعني التعدد في المعنى والتنوع، كما تصادر غرض الخطاب ومنتجه وهويتهما.

وبالعودة إلى الفلتات التي يقع فيها الخطاب رهينة لدى الناقد والمؤول فإنهما يغتنمان الفرصة - ربما - لتفكيك الخطاب وإعادة تركيبه معنًى، بما أوتي كل واحد منهما من معاول لحفر الخطاب أثناء دخولهما قلب عمليتي النقد والتأويل، من دون إحداث حفرة كبيرة يصعب تغطيتها أو حفرة عميقة تكون سببا في هدم البنية التحتية للخطاب فيستحيل ترميمها.

وعلى هذا الأساس يتحرك المتلقي داخل الخطابات بكثير من الحرية المضبوطة، ويتقمص أدوارا متراوحة بين القارئ، والناقد، والمؤول، والشارح، والمحلل، والمقيّم، والدارس، والوسيط، والحكم، والموجه الذي يعيد تشكيل فكرة ما، والناقد المؤول - هنا – تحديدا مجاهد في ساحة معركة الخطاب، لذا يجب عليه أن يتسلح بأسلحة يتوسّل بها أهدافه المسطرة قبلا بمهارة منقطعة النظير، في ظل استحضار معارفه ومهاراته وخبراته عن طريق الاستقصاء والتفكير المنطقي، وفي ظل إلزامية وجود إستراتيجيات التواصل، وإن كان التأويل لا يقل قيمة عن النقد من حيث وظيفته التي لا تخرج عن كونه إعادة بناء وتصور للمعنى، وإنتاج للفهم، وبحث في خصوصيات لا تتحقق إلا بالقراءة، والدربة، وطول التأمل، والظن، والمكاشفة... وكلها نتاج قراءات يتشارك فيها المتلقون وخاصة الناقد المؤول، ومن ثم فإن دور المؤول لا ينحصر في مطابقة مقاصد المؤلف، وإنما يكمن في البحث عما يجعل من نص ما نصا أدبيا، أي تلمس الخصوصية الأسلوبية والفنية التي تمنح عملا أدبيا صفة الأدبية، لأن مثل هذه الخصوصية لا تتحقق إلا باقتفاء أثر النص/ الخطاب بأجهزة إجرائية منهجية دقيقة، بالنظر إلى الحقل الذي تنتمي إليه؛ حيث لا مجال للدقة العلمية بقدر ما هو مجال للدقة المنهجية.

وقد تتحقق النظرية التأويلية في تحليل النصوص الأدبية والخطابات النقدية وفقا لاتجاهات نقدية مختلفة؛ منها ما يتصل بجمالية تلقي النصوص، ومنها ما يتعلق بانفتاح النصوص، وتعددية الدلالة ولا نهائية التأويل، وهو ما يستدعي تجديد

الرؤية النقدية وإعادة تشكيلها بناء على أن عالمية التأويل هي في الواقع، البعد العالمي للفلسفة وليس مجرد القاعدة أو الدعامة النظرية لعلوم الإنسان، ويتعلق الأمر هنا بتمديد آفاق التأويل كمنعطف حاسم في التراث الإنساني. وأما عالمية التجربة التأويلية فتعني في الأساس مجاوزة الأرغانون [الآلة] المنهجي الصارم والذي لا يؤسس، بأي شكل من الأشكال، حقيقة العلوم الإنسانية والتاريخية بإقرار حقيقة متجذرة في التصور والممارسة والتواصل (غادامير، 2006، ص 26).

وإيمانا منا بأن النّص/ الخطاب ممارسة ذات معنى وليس فعلا مجانيا (ristiva, 1974, p, 340)، فهو قابل للتأويل المستمر، وبضبط أكثر دقة خاضع لتأويلات متناسلة لا نهاية لها تفضي إلى ما لا نهاية من المعاني، وهو ما يجعلنا نقر بأنه لا توجد – دوما - قراءة نزيهة أو تأويل بريء وإنما تحضر في بعض الأوقات قراءة عنيفة أو تأويل حاد، وإن حاول بعضهم جعلها قراءة مطواعة وتأويلا مذعنا أو مشاكسا، فإن ما يعيد الناقد المؤول تشكيله ليس سوى استرجاع لنص/ خطاب يحتاج إلى أنفاس جديدة تبعث فيه الحياة.

ولكن ما موقع القرآن الكريم كلام الله المعجز من كل هذا؟ لا شك أن مقاصد القرآن كثيرة، منها: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل والوثنية إلى العلم والمعرفة وعبادة الله وحده، وهو ما لا تعكسه أكيد بعض الدراسات التي تسعى إلى إخراج الناس من النور إلى الظلمات، ومن العلم إلى الجهل، ومن عبادة الله وحده إلى الشرك والكفر بالله، والدعوة إلى الاستغناء عن التعبد بتلاوة القرآن والعمل بما جاء فيه، وهو الذي نزل منجَّما ومفرّقا حسب الأحداث والوقائع، ليواكب القضايا والمستجدات، وقد جاء مصححا للعقيدة والتوحيد مصلحا للنفوس ومزكيا لها، وموجها إلى حسن عبادة الله وهاديا لهم إلى الصراط المستقيم تحقيقا للسعادة الدنيوية والأخروية، وتكريما للإنسان وتشريفه.

لقد شرع المهتمون بتفسير النصوص المقدسة باعتماد فن التأويل لاهوتيا ثم امتد مع تعدد القراءات النقدية وارتبط بنظرية المعرفة العلمية أو ما يعرف بالإبستمولوجيا، ليتغلغل فيما بعد في كنه الفلسفة ويرتبط كعلم الوجود برؤيا الوجود وتفسير الكون، وكل ما من شأنه أن يعنى بالميتافيزيقا. وبالموازاة نظر المفسرون إلى التفسير كمعادل إجرائي للتأويل، وقد كان الخطاب متأرجحا بين قراءة تفسيرية منطلقها ومنتهاها اليقين، وبين قراءة تأويلية منطلقها ومنتهاها الظن، ثم إن ما يصدق على الخطاب البشري ليس يصدق على القرآن الكريم، والشأن نفسه بالنسبة إلى الدراسات التي تعنى بالنص البشري ليست مناهجها وأدواتها وآلياتها بمنأى عن الفساد مثل منهج التأويل النفسي، الذي يعنى بالمؤلف، والأسباب التي قادته للتعبير والكتابة، ضمن سياق نفسي، وآخر تاريخي ينتمي إليه المؤلف، وهذا ما لا أصل له في شريعتنا السمحة (مفتاح، 1990، ص 90، 91).

وإذا كان بعض الدارسين اهتموا بتفرد الخطاب عن غيره فإنهم نظروا إليه موصولا على الأقل بالتأويل النحوي الذي يعتمد على سمات الخطاب التي تشيع في ثقافة ما، أو التأويل التقني الذي يهتم بفردانية رسالة الكاتب، بل عبقريته... ويسمى هذا التأويل إيجابيا؛ لأنه يصل إلى فعل الفكر الذي أنتج الخطاب (ريكور، 2002، ص 46، 47). لقد قادت هذه التعريفات والتصنيفات للتأويل إلى رسم خارطة عبور داخل أنفاق النصوص / الخطابات ودهاليزها، لتقصي فاعليته فيها، وبخاصة أنها تعرف تحولات وانزياحات كثيرة تفرض على القراء امتلاكا للآليات، والأدوات الإجرائية، ليتمكنوا من تحقيق الرؤية التأويلية المستندة على المهارة التخييلية، والمقدرة التأملية، والتفكير النقدي، والمرجعيات المعرفية، والمنابع الفكرية، والخبرة الجمالية؛ ما يعني تحميل القراء طاقات تذوق، واستيعاب، وفهم، وإدراك، وتفسير، وتأويل، ووعي تتخطى ما أوتي المؤلف نفسه الذي يمارس عليه مراقبة من نوع مخصوص، وإن كانت عملية التأويل - هنا - تبدو مرهقة نوعا ما، وفيها من الخطورة ما فيها،

فمردها إلى انفتاح التأويل وتلاقحه مع حقول معرفية متنوعة، لكن في المقابل فإن هذا لا يمحو عن التأويل بوصفه علما مرونة منهجه، منظورا إليه كوعي، وفهم، وتمثل للمعاني، وكآليات تكشف عن قدراته ومقاصده.

النتائج:

خلص البحث إلى أن الوعي النقدي في الخطاب العربي المعاصر يمثل تحولا في طبيعة العلاقة بين النص والقارئ، من حيث إسهام القارئ في إعادة انتاج النص وبناء المعنى عن طريق تحويل مسار النص إلى وجهة إيجابية تمنحه تفاعلا نقديا وتأويليا.

وبالموازاة فمن الضرورة بمكان أن نؤكد أن محاولة قراءة النصوص قراءة عشوائية أو سريعة أدت إلى عدم استيعاب المعاني، وهو ما جعل التجربة النقدية وقراءة الخطاب وتأويله في بعض الأحيان تتخذ منعطفا عنيفا أحدث شرخا كبيرا على مستوى الخطاب؛ حيث طوّحت به بعيدا عن أهدافه الكبرى ومرماه الواضح، كونها على المستوى العربي - وتحديدا عند بعض الدارسين - لم تتجاوز حدود مشروع غير أصيل استنزفه الغرب، وعندما تأكدوا من فساده ألقوه على قارعة الطريق، خصوصا عندما نظر التيار التأويلي الغربي إلى الكتب المقدسة على أنها نصوص بشرية متساوية المعايير، قابلة للإخضاع النقدي.

ولتطوير الخطابات النقدية الأدبية، والمعرفية، والإنشائية، والنفسانية، والاجتماعية، والفلسفية، والتاريخية... وغيرها تأويلا، فقد كان من الواجب علينا تحريرها من قيود التبعية، ومن كل ما يشل حركتها وتناميها وتطورها؛ كون التأويل في الخطاب النقدي المعاصر يمثل وعيا ورؤية ووجهة نظر ومواصفة، وبخاصة إذا جزمنا أن كل منهج وكل نظرية فوضوية هي اليوم مشروع قراءة ثانية بل قراءات مكثفة ومتحررة.

نحن لسنا من دعاة الانغلاق على الذات، ولا نرفض استجلاب كل ما هو غربي والانفتاح على الآخر، ولكن نحن نبحث عن حلول للوصول إلى قراءة نقدية واعية ترقى بالنصوص وتلبي ذائقة القارئ من خلال طرح تساؤل قد يسهم في الوصول إلى المبتغى وهو: هل حقا غيّر النقد بمناهجه والقراءة بنظريتها والتأويل بشروحاته وتفسيراته مسار الخطاب بأي شكل من الأشكال ليتغير واقع الإنسان الذي تاه بين هذا وذاك بدل أن يستجمع من خلالها شتاته ويعيد بناء ذاته أو يعمل على تجديدها أو إصلاحها أو تطويرها؟

المراجع

إيكو، أ. (2013). *الأثر المفتوح* (عبد الرحمان بوعلي، ترجمة؛ ط.3). دار الحوار.

بارة، ع. (2009). استعمال النصوص وحدود التأويل: في نقد الممارسة التأويلية عند إمبرتو إيكو، *مجلة المخبر*، (1)، 167 – 183.

بكار، ع. (2008). *القراءة المثمرة: مفاهيم وآليات* (ط.6). دار القلم.

بلمليح، إ. (2000). *القراءة التفاعلية: دراسات لنصوص شعرية حديثة*، دار توبقال.

بن حسن، ح. (2003). *النظرية التأويلية عند بول ريكور* (ط.2). منشورات الاختلاف.

بوقرة، ن. (2009). *المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: دراسة معجمية*. جدار للكتاب العالمي.

توامي، م. (2013). الشعر العربي المعاصر - حضور المنهج وغياب السؤال الفلسفي، *مجلة اللغة العربية وآدابها*، (3)، 187 – 198.

تورين، ف. د. (2014). *الخطاب والسلطة* (غيداء العلي، ترجمة؛ ط.1). المركز القومي للترجمة.

الجرجاني، ع. (1992). *دلائل الإعجاز* (محمود محمد شاكر، تحقيق؛ ط.1). مكتبة الخانجي.

الجمحي، ا. س. (1974). *طبقات فحول الشعراء* (محمود محمد شاكر، تحقيق). دار صادر.

جونس، هـ. ر. (1988). علم التأويل الأدبي، حدوده ومهمّاته (بسام بركة، ترجمة). *مجلة العرب والفكر العالمي*، (3)، 53-60.

حمر العين، خ. (2010). الشعرية وانفتاح النصوص - تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل، *مجلة الجسرة الثقافية*، (22)، 11-30.

ريكور، ب. (2001). *من النص إلى الفعل - أبحاث التأويل* (محمد براءة، وحسّان بورقية، ترجمة؛ ط.1). الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

ريكور، ب. (2002). *مهمة الهرمنيوطيقا* (خالدة حامد، ترجمة). *مجلة نوافذ*، (22)، 37-90.

أبو زيد، ن. ح. (1992). *نقد الخطاب الديني*، سينا للنشر.

سلدن، ر. (1998). *النظرية الأدبية المعاصرة* (جابر عصفور، ترجمة). دار قباء.

شريط، س. (2008). القراءة والتأويل: مصطلحات التلقي والمشاهدة، *مجلة كتابات معاصرة*، (63)، 145-156.

الصوفي، ع. (2008). *فن القراءة – أهميتها. مستوياتها، مهاراتها، أنواعها* (ط.1). دار الفكر.

عبد العزيز، ب. (2016). *سطوة النص: خطاب الأزهر وأزمة الحكم* (ط.1). دار صفصافة.

غادامير، هـ. (2006). *فلسفة التأويل* (محمد شوقي زين، ترجمة؛ ط.2). منشورات الاختلاف.

غارديس، ت. ج.، وكلود، هـ. م. (2013). *معجم النقد الأدبي* (كامل عويد العامري، ترجمة؛ ط.1). دار المأمون للترجمة والنشر.

لافي، س. (2006). *القراءة وتنمية الفكر* (ط.1). عالم الكتب.

لانسون، ج. ومابيه، أ. (1946). *منهج البحث في الأدب واللغة* (محمد مندور، ترجمة). دار العلم للملايين بيروت.

المتوكل، أ. (2003). *الوظيفية بين الكلية والنمطية* (ط.1). دار الأمان.

المسدي، ع. (1983). *النقد والحداثة: مع دليل ببليوغرافي* (ط.1). دار الطليعة.

المسدي، ع. (1997). اللسانيات، وإبستيمية النقد، *المجلة العربية للثقافة*، (32)، 10-19.

المسيري، ع. (1996). *إشكالية التحيّز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد* (ط.2). منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

مصطفى، ع. (2003). *مدخل إلى الهرمينوطيقا* (ط.1). دار النهضة العربية.

مفتاح، م. (1990). *مجهول البيان*، دار توبقال.

References

ʻAbd al-ʻAzīz, B. (2016). *The domination of the text: Al-Azhar's discourse and the crisis of governance* (1st ed.). Ṣafṣāfah Press, (in Arabic).

Abū Zayd, N. H. (1992). *Critique of religious discourse*. Sīnā Publishing, (in Arabic).

Al-Jumaḥī, I. S. (1974). *Ṭabaqāt fuḥūl al-shuʿarāʾ* (M. M. Shākir, Ed.). Dār Ṣādir, (in Arabic).

Al-Jurjānī, ʻA. (1992). *Dalāʾil al-iʿjāz* (M. M. Shākir, Ed.; 1st ed.). Al-Khānjī Publishing, (in Arabic).

Al-Masīrī, ʻA. (1996). *The problem of bias: An epistemological perspective and a call for ijtihād* (2nd ed.). The International Institute of Islamic Thought, (in Arabic).

Al-Massadī, A. (1983). *Criticism and modernity: With a bibliographic guide* (1st ed.). Dār al-Ṭalīʿah, (in Arabic).

Al-Massadī, A. (1997). Linguistics and the epistemology of criticism. *The Arab Journal of Culture*, 32, 10–19, (in Arabic).

Al-Mutawakkil, A. (2003). *Functionalism between holism and typology* (1st ed.). Dār al-Amān, (in Arabic).

Al-Ṣūfī, A. (2008). *The art of reading: Its importance, levels, skills, and types* (1st ed.). Dār al-Fikr, (in Arabic).

Bakkār, A. (2008). *Fruitful reading: Concepts and mechanisms* (6th ed.). Dār al-Qalam, (in Arabic).

Bārah, A. (2009). The use of texts and the limits of interpretation: A critique of Umberto Eco's interpretive practice. *Al-Mukhabbar Journal*, 1, 167–183, (in Arabic).

Belmlih, I. (2000). *Interactive reading: Studies of modern poetic texts*. Dār Tūbqāl, (in Arabic).

Bin Ḥasan, H. (2003). *Paul Ricoeur's hermeneutic theory* (2nd ed.). Ikhtilāf Publishing, (in Arabic).

Buqurra, N. (2009). *Basic terminology in text linguistics and discourse analysis: A lexicographical study*. Jidār for World Books, (in Arabic).

Eco, U. (2013). *The open work* (ʿAbd al-Raḥmān Buʿalī, Trans.; 3rd ed.). Dār al-Ḥiwār, (in Arabic).

Eco. (1990). *Umberto: Les limites de l'interprétation,* éd. Grasset.

Gadamer, H.-G. (2006). *Philosophy of hermeneutics* (M. Sh. Zayn, Trans.; 2nd ed.). Ikhtilāf Publishing, (in Arabic).

Gardies, T. J., & Claude, H. M. (2013). *Dictionary of literary criticism* (K. ʿA. al-ʿĀmirī, Trans.; 1st ed.). Dār al-Maʾmūn for Translation and Publishing, (in Arabic).

Ḥamr al-ʿAyn, Kh. (2010). Poetics and textual openness: Polysemy and the infinity of interpretation. *Al-Jasrah Cultural Magazine*, 22, 11–30, (in Arabic).

Jones, H. R. (1988). Literary hermeneutics: Its limits and tasks (B. Barakah, Trans.). *Al-ʿArab wa-l-Fikr al-ʿĀlamī*, 3, 53–60, (in Arabic).

Kristiva, J. (1974). *la revolution du langage ,poins*, Editions du seuil.

Lāfī, S. (2006). *Reading and the development of thought* (1st ed.). ʿĀlam al-Kutub, (in Arabic).

Lanson, G., & Mahe, A. (1946). *Methodology of research in literature and language* (M. Mandūr, Trans.). Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, (in Arabic).

Miftāḥ, M. (1990). *Majhūl al-bayān*. Dār Tūbqāl, (in Arabic).

Muṣṭafā, A. (2003). *Introduction to hermeneutics* (1st ed.). Dār al-Nahḍah al-ʿArabiyyah, (in Arabic).

Ricoeur, P. (2001). *From text to action: Essays in hermeneutics* (M. Barāʾah & Ḥ. Burqiyyah, Trans.; 1st ed.). Center for Human and Social Studies, (in Arabic).

Ricoeur, P. (2002). The task of hermeneutics (Kh. Ḥāmid, Trans.). *Nawāfidh*, 22, 37–90, (in Arabic).

Selden, R. (1998). *Contemporary literary theory* (J. ʿAṣfūr, Trans.). Dār Qibāʾ, (in Arabic).

Sharīṭ, S. (2008). Reading and interpretation: Reception and spectatorship terminology. *Kitābāt Muʿāṣirah*, 63, 145–156, (in Arabic).

Tawwāmī, M. (2013). Contemporary Arabic poetry: Presence of methodology and absence of philosophical inquiry. *Journal of Arabic Language and Literature*, 3, 187–198, (in Arabic).

Twain, F. D. (2014). *Discourse and power* (Ghaydāʾ al-ʿAlī, Trans.; 1st ed.). National Center for Translation, (in Arabic).